الفصل الثالث

الفتح الإسلامى لفلسطين
والحق التاريخى للمسلمين

obeikandl.com

obeikandl.com

الفتح الإسلامى للقدس

مرت فلسطين قبل الإسلام بعهود كثيرة كان للعنصر العربى فيها الخط الأوفى كما شرحنا أليس هذا العنصر حفيد إبراهيم وإسماعيل؟.. أليس هذا العنصر بالإسلام وارث التراث الروحى لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وكل الأنبياء؟ ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما** ﴾ [آل عمران]

لقد عرفت فلسطين قبل الإسلام للفينيقيين «العرب» دولة.

ولقد عرفت للكنعانيين «العرب» دولة.

وعرفت حكم الفراعنة والبابليين والآشوريين والفرس والرومان.

وعلى امتداد التاريخ المعروف الذى يقترب من خمسين قرنا قبل الإسلام لم يعرف لليهود دولة قوية فى فلسطين إلا تلك الفترة التى بدأت بحكم داود عليه السلام، وضعفت بعد موت ابنه سليمان (١٠١٠ - ٩٧٠م) ولم تتعد سيطرتها الحقيقية مدة أربعين سنة حسب كتب اليهود(١).

أجل .. من جملة ما يقرب من خمسين قرنا قبل الإسلام لم يكن لليهود دولة فى فلسطين، إلا فترة تزيد قليلا على نصف قرن

(١) فيليب حبيب - قضية فلسطين.

كما أوضحنا من قبل.

ونظرا لمكانة القدس فى قلوب المسلمين فانهم لم يقصروا منذ اندفعوا خارج الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام سنة ١٠ هـ - ٦٣٢م فى محاولة فتح فلسطين، وربط المسجد الأقصى بالمسجد الحرام عمليا، بعد أن ربط الإسلام بينهما فى عقيدة المسلم ووعيه الدينى.

وفى سنة ١٥ هـ أى بعد وفاة الرسول ﷺ بخمسة أعوام تمكن المسلمون من فتح كثير من بلاد الشام على أثر معركة اليرموك، ودانت لهم حمص وقنسرين وقيسارية وغزة واللاذقية وحلب، وحيفا ويافا وغيرها.

وقد اتجه لفتح بلاد فلسطين قائدان مسلمان هما: عمرو بن العاص، وأبوعبيدة بن الجراح الذى إليه يعزى فضل إدخال بيت المقدس فى الإسلام وكانت تسمى بإيلياء.

وكان المسلمون قبل تقدمهم لفتح القدس «إيلياء» قد اشتبكوا مع الروم فى معركة حامية الوطيس هى معركة أجنادين، وانتصروا فيها بعد قتال شديد يشبه قتالهم فى اليرموك[١]، وفر كثير من الرومان المهزومين ومنهم الأرطبون نفسه إلى إيلياء.

(١) تاريخ الطبرى - تاريخ الأمم والملوك.

وقد تقدم المسلمون لفتح (إيلياء) فى فصل الشتاء والبرد، وأقاموا على ذلك أربعة أشهر فى قتال وصبر شديدين. ولما رأى أهل ايلياء لا طاقة لهم على هذا الحصار، كما رأوا كذلك صبر المسلمين وجلدهم – أشاروا على (البطريرك) أن يتفاهم معهم – فأجابهم إلى ذلك فعرض عليهم أبو عبيدة بن الجراح احدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، فرضوا بالجزية، والخضوع للمسلمين، مشترطين أن يكون الذى يتسلم – المدينة المقدسة – هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه.

وقد أرسل أبو عبيدة بن الجراح إلى أمير المؤمنين «عمر» بما اتفق عليه الطرفان، فرحب عمر بحقن الدماء، وسافر إلى بيت المقدس، واستقبله المسلمون فى (الجابية) وهى قرية من قرى الجولان شمال حوران، ثم توجه إلى بيت المقدس، فدخلها سنة (١٥هـ) (٦٣٦م)، وكان فى استقباله بطريرك المدينة (صفر وينوس) وكبار الأساقفة. وبعد أن تحدثوا فى شروط التسليم انتهوا إلى اقرار تلك الوثيقة التى اعتبرت من الآثار الخالدة الدالة على عظمة تسامح المسلمين فى التاريخ، والتى عرفت باسم العهدة العمرية.

العهدة العمرية:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها – زنه لا

تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم. ولا يضام أحد منهم. ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص.

فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم امنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية. ومن شاء سار مع الروم. ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية.

وشهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان . .

وكتب وحضر سنة خمسة عشرة هـ(١).

(١) الطبرى - حوادث ١٥ هـ.

القدس عربية إسلامية :

ومنذ أبرمت هذه الوثيقة التاريخية الخالدة، وبيت المقدس تحظى بعناية الحكام المسلمين على نحو قريب من عنايتهم بالمسجد الحرام والمسجد النبوى الشريف.

وقد تعاقب عليها الحكام المسلمون من الراشدين إلى الأمويين إلى العباسيين إلى بنى طولون الاخشيديين إلى الفاطميين إلى السلاجقة، فالمماليك فالأتراك وكلهم يوليها الاهتمام الجدير بها.

وقد ظلت القدس إسلامية عربية منذ العهدة العمرية الآنفة الذكر سنة ١٥ هـ ٦٣٦م حتى سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م باستثناء فترة الحروب الصليبية.. (١٠٩٩ - ١١٧٨م) التى استطاع خلالها دعاة الحقد الصليبى أن يستولوا على القدس ويؤسسوا مملكة اللاتين فيها.

وبعد أن توحدت كلمة المسلمين وعزموا على تحرير البلاد المقدسة من أيدى الغاصبين كتب الله لهم النصر على يد القائد صلاح الدين الأيوبى فى معركة حطين سنة ١١٨٧م، وعلى أثرها حرر صلاح الدين مدينة القدس من أيدى الغزاة يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ (٢ زكتوبر سنة ١١٨٧م) (١).

وتتوالى صفحات التاريخ فى القدس، فلا نكاد نجد فيها انقطاعا

(١) محمود العابدى - القدس.

لفعالية الروح الإسلامية المتسامحة العادلة التى تقوم على حراستها دروس المسجد الإبراهيمى والحلقات العلمية الإسلامية فى المسجد الأقصى، ومسجد الصخرة، ولا تنطوى صفحة مضيئة إلا لتبدأ أخرى حتى نهاية العصر العثمانى الذى يتحدث عنه مؤرخ مسيحى معاصر هو الأستاذ (هنرى كتن) بقوله:

«وفى سنة ١٥١٨م/ ٩٢٤هـ فتح العثمانيون فلسطين، وظلوا بها إلى سنة ١٩١٧م/ ١٣٣٦هـ غير أن هذا الفتح لم ينطو على أى استعمار، ولم يترتب عليه أى تغيير كان فى قوام الشعب، إذ أن الفتح التركى لم يغير أو يؤثر على أى نحو كان فى الطابع العربى للبلاد .. وقد استمتع جميع المواطنين فى الدولة العثمانية على اختلافهم من ترك وعرب ومسلمين وعرب مسيحيين ويونانيين وأرمن ويهود بحقوق مدنية متساوية دون نظر إلى جنس أو معتقد أو دين، ثم جاء الدستور العثمانى فى ٢٣ من كانون الأول (ديسمبر ١٨٧٦ - ١٢٩٣هـ) فأكد مرة أخرى مبدأ المساواة فى الحقوق، وهو المبدأ الذى كان مرعياً فيما سبق»(١).

ولم يتعرض تاريخ القدس لأحداث دموية واضطهاد دينى منذ الفتح الإسلامى، إلا فى تلك الفترة التى استولى فيها الصليبيون على بيت المقدس (١٠٩٩ - ١١٨٧م) (٤٩٢ - ٥٧٣هـ)، وهى فترة شغلت من هذا التاريخ نحو تسعين سنة ..

(١) فلسطين فى ضوء الحق والعدل - هنرى كتن.

وعلى نقيض (العهدة العمرية) التى فرضت السلام والأمن، وحققت العدل والرعاية والحق لكل من وجدهم الإسلام فى بيت المقدس ... أجل .. على النقيض من وثيقة عمر، ما إن دخل الصليبيون بيت المقدس حتى عقدوا أول اجتماع لـ «ديوان المشورة العسكرية» قرروا فيه قتل كل مسلم بقى حيا فيها، ويستمر تنفيذ الإعدام الصليبى أسبوعاً كاملاً سجله المؤرخون النصارى بقولهم: إن الدماء وصلت فى رواق المسجد حتى الركب»...

ويقول مؤرخ نصرانى آخر: «لم يوفر الصليبيون أحداً من سيوفهم لا من الرجال ولا م النساء والعجزة ولا من الأطفال، وظن المسلمون أن مسجد عمر يحميهم من الموت، ولكن ظنهم خاب: إذ أن الصليبيين لحقوا بهم خيالة ومشاة ودخولا المسجد المذكور. وأبادوا كل من وجدوه فيه بحد السيف».

ويقول كاتب نصرانى آخر: «ولم يميز النصارى فى إبادتهم بين رجل وامرأة أو بين صغير وكبير، وراحوا يتباهون بأنهم قتلوا سبعين ألفا من المسلمين، وأنهمو لم يغمدوا سيوفهم قبل أن خمدت نار الانتقام المتأججة فى قلوبهم (١).

– ولكن المؤرخ المسلم يتساءل هنا مستغربا: الانتقام لأى شئ يا ترى؟!

– والغريب .. أنه لما شاء الله أن تقهر هذه الغارة البربرية

(١) المفصلى فى تاريخ القدس – عارف العارف.

الصليبية، وظهر صلاح الدين الأيوبى .. الذى أعاد القدس إلى الإسلام، وكانت لديه الدوافع القوية للانتقام بكل معنى الكلمة، نظر لما ارتكبه النصارى من جرائم لا تحصى ولا تليق بإنسانية الإنسان طيلة الغزوة الصليبية ...

الغريب أن صلاح الدين – باعتراف كل مؤرخى النصارى بلا استثناء – لم يحاول أن يتشفى أو ينتقم .. بل استولى على القدس دون أن تنتهك حرمة كنيسة، دون اعتداء على طفل أو شيخ أو عجوز ...

– والأغرب من ذلك ما فعله صلاح الدين – خضوعا للتسامح الإسلامى الرفيع – حين وقع الصليبيون بالقدس فلم يتخذ منهم أسرى على الأطلاق.

ومع أن الذاكرة التاريخية لصلاح الدين تعى ما حدث لدماء سبعين ألفا من المسلمين تباهى الصليبيون بأنهم أخمدوا بهم نار الانتقام المتأججة فى صدورهم – إلا أن صلاح الدين مع ذلك أبدى من ضروب التسامح الإسلامى ما أبقى ذكره خالداً فى التاريخ الإنسانى كله باعتراف النصارى قبل المسلمين.

يقول المؤرخ الصليبى «أرنولد»، الذى كان حاضراً ذلك اليوم المشهود: «لقد تقدم العادل إلى أخيه صلاح الدين يستوهبه ألفاً من هؤلاء الأرقاء فأجابه السلطان، ثم استوهبه بليان (الأمير) والبطريرك مثل العادل فأجابهم، وهنا التفت صلاح الدين إلى الحاضرين وقال: لقد أدى أخى صدقته، وكذلك فعل الأمير

والبطريرك، والآن جاء دورى لتأدية صدقتى أنا .. فأمر رجالا من حرسه أن ينطلقوا وينادوا فى شوارع القدس: إن كل عاجز عن دفع الفداء يستطيع أن يخرج وأنه حر لوجه الله (١).

ويقول المؤرخ الانجليزى «كوكس»: «لقد لاقى اللاتينيين من رحمة صلاح الدين ولطفه وانعامه فوق ما انتظروا. ومن المؤكد أن مثل هذه المعاهدة لو عقدت فى زمن بطرس الناسك وجود «فرى» لخرقت ساعة النصر وانصب الويل على المغلوب.

إن هذه هى الحقيقة التى يعترف بها الانجليزى «كوكس»...

لكن الذى لم يدركه «كوكس» هو أن القضية ليست فرقاً بين صلاح الدين وبطرس الناسك – لكنها «الفرق الكبير» بين تاريخ المسلمين وتاريخ غيرهم، وبين معاملة المسلمين لمخالفيهم ومعاملة غيرهم من الأمم.

وما صفحة المسلمين البيضاء فى القدس إلا دليل واحد من جملة مئات الأدلة التى قدمتها الحضارة الإسلامية من خلال عبورها أربعة عشر قرناً من الزمان.

* * *

وبالإضافة إلى هذا الحق الإسلامى فى بيت المقدس، والذى اثبتته مسيرة التاريخ، من خلال العرض الوجيز الذى قدمناه، والذى

(١) محمود العابدى – قدسنا.

تفرضه طبيعة هذا البحث ...

بالإضافة إلى هذا الحق التاريخى - فإن الأعراف والقوانين الدولية الحديث تؤكد هذا الحق وتثبته ثبوتا يقينيا.

أجل: إن حق المسلمين فى القدس حق تاريخى، ودينى وقانونى، ويعتمد على كل مقومات السيادة التى تقرها الأعراف والدساتير والقوانين الدولية.

ففى هذه المدينة عاش المسلمون والعرب بصورة مستمرة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، فضلا عن وجود العرب السابق للإسلام.

ولا أحد فى هذا العالم يستطيع أن يقول من منطلق العقل لا من منطلق القوة والعدوان:

إن خريطة العالم يمكن أن تقسم من جديد وفقاً لفترات تاريخية انتهت من عشرات القرون.

إن هذا منطلق غير قانونى يعتمد على القوة وحدها ولا يستمد من القوانين الحديثة أية مشروعية (١) ... وإلا فهل يمكن إعادة أمريكا إلى الهنود الحمر، وطرد الأوربيين «الأنجلو ساكسون» ... مع أن الأوربيين لم يدخلوا أمريكا إلا من فترة قصيرة عمرها أقل من أربعة قرون؟

وإذا كانت كل أسباب سيادة العرب المسلمين على القدس قائمة

(١) بروفسور ارنولد توينبى.

– فإنه لم يتوفر – من جهة أخرى – سبب من الأسباب المؤدية إلى فقدانهم للسيادة على هذه المدينة المقدسة. وإن وجود أقلية يهودية. أو أية أقلية أخرى بها أو بغيرها من مدن فلسطين لا يرتب لهذه الأقلية أى حق فى السيطرة على الإقليم بالقوة، وعن طريق استيراد مهاجرين (يهود) جدد من جنسيات مختلفة أو بتسهيلات من الدولة المنتدبة (بريطانيا) [1]، ومعروف أن فى كل بلاد العالم أقليات ذات عقيدة دينية أو مذهبية مختلفة .. لكن لا يوجد القانون الذى يعطى لهذه الأقليات حق «تكثير» نفسها عن طريق استيراد عناصر خارجية ذات جنسيات أخرى.

* * *

(١) المركز القانونى لمدينة القدس – سالم الكسوانى.

obeikandl.com